

فخر الدين المعني الثاني

ودولة تسكانا

ردّ وايضاح

للحوري بولس قرآلي

اعلنا ، منذ ظهور مجلتنا في القطر المصري ، اننا نتقبل بارتياح كل
 نقد تزيه مفيد يوجه الينا ؛ لاننا لا ندعي العصمة ومعرفة كل شي .
 بل نقد انفسنا وقراءنا مدينين لمن يدلنا على خطأ ، أو يزيد
 مرضوعنا ايضاحاً ، « فن علمني حرفاً صرت له عبداً » .

وقد تكرم حضرة الاب لوس الحازن علينا وعلى قراء مجلة المشرق الفراء ،
 « بكلمة مفصلة » ظهرت في جزء نيسان . حزيران الاخير (ص ٢٥١-٢٦٣) «
 لخص فيها مقدمة الجزء الاول من كتابنا المذكور اعلاه ، الموضوع بالايطالية ،
 وذكر تقسيم الوثائق فيه ، وانتقد منه ما رآه حرياً بالنقد .

ولا نخفي على حضرته اننا لم نجح فائدة من نقده ، ولا استفدنا ملاحظة
 سديدة نترشد بها . ونحن نحكم القراء بيننا . مقول :

١ - اول ما نلاحظ عليه في تلخيصه تقدمه تعنده تعريب كلامنا في
 معاملة المسلمين للمسيحيين ، دون غيره من الكلام ، ونقله العبارة الاخيرة منه
 على غير صحتها . فقد قلنا : « بعد ان عاد الصليبيون عن الشرق أمسى مال
 المسيحي وعرضه ودمه تحت رحمة أحقر المسلمين . فعربها حضرته : « أمسى
 مباحاً تحت رحمة اي مسلم كان ، مها سفلت اخلاقه » . والفرق غير يسير بين
 سافل الاخلاق والحقير الشأن .

٢ - وقد دهشنا كيف اجز لنفسه تعبير عن ابن كدبنا . وزادت دهشتنا
 لما رأيناه يملل جوارته بقوله « والظاهر من هذا الكلام (اي عنواننا) أن المؤلف
 حصر بحثه في علائق الامير مع دولة تسكانا فقط . بيد انه يتضح جلياً من
 كلام المؤلف نفسه (وهنا ذكر الصفحات) ، ومن نص الوثائق (وجه ١١٢-١١٦

وروجه (٣١١) ان البحث يدور حول علائق الامير مع دول الغرب أجمع . وعليه كان الاخرى به ان يستيه « فخر الدين الثلثي وعلاقاته مع دول الغرب » .
فتلاحظ على حضرته ارباً اهماله في العنوان اسم « المعني » ، الذي يميز اميرنا عن غيره من حملة هذا الاسم ، وهم كثير .

ونلفت نظره ثانياً الى ان كتابنا عبارة عن مجموعة وثائق خاصة بعلاقات الامير بدولة تسكانا . وما ذكرناه عن علاقاته بغيرها من الدول جاء في المقدمة اتماماً للفائدة وتفرغ هذه الملائق عن علائقه بدولة تسكانا ، وارتباطها بها ارتباطاً وثيقاً يجعلها من صميم موضوعنا . وقد نبهنا الى ذلك في فاتحة كلامنا عن علائق الكرسي الرسولي (ص ١١٧) وهي اهمها .

وقد اتينا على ذكر هذه العلاقات في المقدمة . والمقدمة ليست من صلب الكتاب . ولم يشتمل كلامنا فيها اكثر من عشر صفحات ، من مئة وعشرة ضمناها وصف اخلاق الامير وعدله بين رعاياه وسهره على الامن العام ، وعنايته بالزراعة والتجارة والمالية والجندية والتحصين . وما قام به من الحروب في سبيل الوحدة اللبنانية ، وتوسيع حدود مملكته ، وسياسته مع الدولة العثمانية . وفي آخر المقدمة قلنا كلمة في علاقاته بدول فرنسا واسبانيا ومالطة والكرسي الرسولي فقط ، لا بدول الغرب « اجمع » ، كما زعم حضرته ، واتخذ من زعمه ذريعة ليفضل لكتابنا عنواناً فضفاضاً سعه مساحة اتعرب كنه .

هذا ما جاء في مقدمتنا . اما الصفحات ١١٢-١٩٦ من باب الوثائق فلم نجد فيها شيئاً خارجاً عن الموضوع . ولله يعني الصفحات ٢٩١-٢٩٦ ، حيث نشرنا رسالتين وجيزتين وجههما اوردانيس الذين الى ملك اسبانية يوصيه فيها بالمطران جرجس بن مارون ، سفير فخر الدين لديه ولدى عاهل تسكانا ، لشد أزر الامير في تخليص الاراضي المقدسة وتعدى الشرق ، وخاصة الموارنة ، من نير الاتراك . وهو ما لا يخرج عن موضوعنا . والوثيقتان مما لا تشغلان اكثر من صفحة من الكتاب ، وهما اثنتان من زهاء خمائة وثيقة نشرناها وخصناها فيه . فهل نجبر لاجلها على اتخاذ العنوان الطويل العريض الذي فرضه حضرته علينا .

والدول الاربع المذكورة كانت تتراف «الجلف الصغير» La piccola lega ،
الرامية الى حماية النصرانية من تمديات تركية . فكانت طبعا معادية لها . ولما
استنجد فخرالدين ، في السنة ١٦١٣ ، عاهل تسكانا ، على الدولة العثمانية ، اسرع
هذا فكتب الى هذه الدول حليفاته ليسانده على غرضه . فعلاقة الإمبري
متفرعة عن علاقاته بدولة تسكانا . والفرع ليس الاصل .

وهل يخلو كتاب من ذكر اشخاص او دول او هيئات او اشياء غير
الواردة في العنوان . وآلا لاستحاط الكلام على الكتاب ، وخاصة على المؤرخ ،
وكانت اسما الاعلام الملحقة بمجاولها الطويلة في آخر كل مصنف ، خروجا عن
الموضوع .

ولو تمسنا على قاعدة حضرته لما كفانا الغرب كله حدا لعنواننا ، بل تمداه
الى الشرق . لان علاقة الامير بدول الشرق كانت واسعة ؛ لاسيا بدولة تركية ،
التي خصصنا لها في مقدمتنا الصفحات ١٨-١٠٨ ، ونشرنا لها عدة وثائق . فضلا
عن علاقاته بالقطار والامارات الشرقية الخاضعة للسيادة العثمانية . كالقطر المصري ،
وتونس والجزائر وسراکش والهند ، وولايات وسنجقيات سورية وفلسطين
والاناضول . فتحتم علينا بعد هذا ان نسمي كتابنا «علاقات فخر الدين الثاني
(المني) مع دول الغرب والشرق أجمع» .

ولو تبنا منطق حضرته لاضفنا في العنوان الى اسم فخر الدين مئات من
الاسماء من معاصري الشرقين والغربيين ، كان لهم الشأن الاكبر في اعماله
وسياسته ، والعلاقات بدول الغرب والشرق . وقد نشرنا لهم عدة وثائق . نجد
اسماهم في جدول الاعلام وفي قائمة الوثائق . وقد يبلغون الالف عددا . فهل
نحشرهم كلهم في العنوان .

٣ — ولما حضرته على اننا قدمنا للقراء بعض مؤرخي الامير ، كالحالدي
والدريبي وماريتي والاب روجيه ، واهلنا وستفلد الالماني وروجيه دسان بيير
الفرنسوي . فترجوه ان يراجع عنوان الفصل الذي ذكرناهم فيه ، وهو «المصادر» .
ولما كان الاول قد نقل عن ماريتي ، والثاني عن الاب روجيه ، فاكفينا بذكرهما
في جدول المؤلفين وفي حاشية الصفحة ٢٣ .

١ - ولما نأ على انشأنا بالامير فخر الدين بطلنا. « فلم نصره كما كان ، بل كما نهوى ان يكون . فكان الاولى بقمدمتنا ، التي نعتناها بالتاريخية ، أن نسميها مدافمة » .

فنجيب اننا وجدنا بين الوثائق التي نشرناها تقارير ورسائل تحمل فيها اصحابها على اميرنا ، وتعدوا الخط من قدره وتسويد صحيفته ، لاغراض في نفوسهم . فاصبح من اقدس واجباتنا الرد عليهم والدفاع عن مدرجتنا ، اذا كان هناك سبيل للدفاع عنه . فنقدنا اقوالهم وبيننا انهم يناقضون انفسهم بأنفسهم . ولم نأت في هذا الدفاع بشي . من عندنا ، بل اسندنا كل كلمة قلناها في مصلحة الامير الى مصدر أصيل ذكرنا مرجده ليتثبت القارئ من صحته . فهل خرجنا بذلك عن شروط المؤرخ التزيه . وقد اقتصرنا ، في دفاعنا ، على اخلاق الامير ، فمثل ثلثي صفحات من المقدمة لا غير . فهل هذا القدر الصغير يجيز لحضرة الناقد انكار صفتها التاريخية وتسميتها « بالمدافمة » . مع ان بقيتها ، اي المئة الصفحة والصفحتين ، خصصناها للكلام عن حالة لبنان في عهد الامير من الوجوهات اثرامية والتحريرية والمالية والحربية والسياسية . كما فعل حضرة ذلك في كلمته .

نعم لا نخفي عليه انه من المعجبين بالامير ، بل من المنشقين به والعارفين فضله على طائفتنا وعلى لبنان وعلى الكشكشة في الشرق . وقد تولدت فينا هذه العاطفة لما اظهرت لنا الوثائق عن شخصيته وما تحملت به من الميزات الفريدة ، من عدل وحلم وبأس ومرورة ووطنية صادقة وعزيمة لا يقبلها الحديد ، ورغبة في التثقيف والتمردان وتوحيد بلاده وتآليف عناصرها وتعزيز قواها ، ونظريات حادة ومشاريع واسعة في سبيل رخائها ورضان مستقبلها ، سعى وراءها جهده حياته كلها وسحق منها تسأ كبيراً بالرغم من الصعوبات الهائلة التي اعترضته . حتى اصبحت شخصيته موضع الاعجاب والاکرام عند الاوربيين انفسهم وكسبروا عنه المجلدات شتمهم باعاضهم الرجال . وحال عاصمهم ورواتهم حولها القصص والخرافات كما بينا ذلك في صدر مقدمتنا (ص ٢٣ - ٢٤) . فهل يثقل على طبع حضرة ان نتعثر نحن ايضاً باميرنا ونفاخر به اعظم رجال العرب . فان كنا نعتناه

بيروت الشرق ، فلانه خرج مثله ظافراً ، كما قلنا ، من المارك المدينة التي خاضها ، ودوخ كل البلدان المجاورة لبنان ، وضما اليه من حدود مصر حتى قلب الاناضول . ولم ينخزل سوى في حملته سنة ١٦٢٣ على عرب فلسطين ، الذين كانوا يهربون من امامه ، ويستندجون جيشه في رمال الصحراء القاحلة لينهكوه عطشاً وجوعاً . ثم ينتصرون عليه بقتة في مكامن ينصبونها له ، كما فعل الروس بعد قرنين يجيش بيروت . فانت ترى ان وجوه الشبه بين الرجلين كثيرة . وشبهناه ايضاً ، ونحن نكتب للايطاليين ، بتيكورد عمتريل الثاني ، لان الامير وتحذ لبنان ، الذي كان مجزءاً الى خمس عشرة مقاطعة ، كما وتحذ ذلك دويلات ايطاليا . فهل في ذلك مبالغة وانثغاف .

وزى حضرة الناقد يحط من قدر الامير بقوله انه « توصل من الوجبة الحرية الى توسيع حكمه بالدهاء والرشوة اكثر مما فعل باليف » . وقد قلنا انه وتحذ باليف امارات لبنان ، لانها كانت وراثية ، وضم بالمطاء والدهاء سنجقيات فلسطين وولايات سورية والاناضول ، لانها كانت تعطى لمن يزيد في اموالها ويقوم بعموده نحو الدولة العثمانية . وان الامير كان يفضل بذل ماله على بذل ارواح رعيته ، شأن الحاكم العادل . وهر من هذا القيل يغفل على بيروت . بيد ان هذا لا يبخسه حقه في مزاياه الحرية المتأززة التي بينهاها . فضلاً عن ان المطا . لم يكن يكفي لضم السنجقيات والولايات الحارجة عن لبنان ، بل كان يضطر دائماً الى استعمال اليف لتسلها والاحتفاظ بها ، مما جعل حياته كلها سلسلة حروب ومما مع فاز في جميعها لشجاعته وحسبته ويقظته ونظام جيشه ، كما بيناه (ص ٢٩-٢٣ و ٥٩-٧٠) . وقد شهد له بهذه الميزات الحرية اعداذه انفسهم ، كالمهندس سانتي الذي قال (ص ٧٣) : ان الذدر كان يورد الى بأسه لا الى جيشه .

وكنا نعلل النفس ان يصح حضرته اكثر انثغافاً منا بالامير بمد ان يطالع كتابنا ، لانه لبثاني وخازني ، ونحن لا هذا ولا ذلك . انني ان فخر الدين اصل نعمة بيته . فقد مشع آل الخازن ، جدوده ، بشرات فتوحاته ، فنصبهم على بيروت وكسروان والقترح وطرابلس والجبه ، واولام أعلى الوظائف

والمراتب ونفهم باسمى الانقلاب ، كما شرحنا ذلك (ص ٤٠). انبي انه صاحب الفضل الاكبر على نهضة لبنان الحديثة ، واستقلاله بمجوده الطبيعية الحالية . فان انكر الجليل وحاول تخيير الامير فنحن لا يسنا آلا ان نقر له بفضلته على طائفتنا . فقد ساواها بالمسلمين في الحقوق المدنية ، وحمى بطريركها وافرادها ، وحالفها وساعدها على التبسط في لبنان والجليل . وهو ايضاً صاحب الفضل على نهضة الكشككة في لبنان وفلسطين وسورية ، كما بيناه (ص ٣٨-٤٨) . قلبه الاجبار الاعاظم «حامي النصرانية في الشرق» ، ودعوا بملكته «المينا. الامين» ، الذي يلجأ اليه المسيحيون من زوابع الاتراك المهرجاء . وقد تمس له اغلب من كتب عنه من الارربيين . افلا يحق لنا ان نمثل بهم على الاقل ، وهو اميرنا وصاحب الافضال على وطننا وابنا. مذهبنا . وهل كان يوماً الشغف بعظيم او بثابفة محرماً على الكتاب . او كتب للمؤرخ ان يكون خالي الاحساس ، خائناً ، ما دامت العاطفة لا تتغلب فيه على النزاهة .

٥ — وقال حضرة الناقد: «بينما نرى المؤلف يحذرنا ان الاب روجيه ميل في رواياته الى الخيال ، زاه يستند اليه في كثير من رواياته» .

قلنا ان الاب المذكور كان طبيب الامير وصديقه الخاص يعرف عنه ما لم يعرفه غيره . فضلاً عن كونه قضى في لبنان شطراً كبيراً من حياته . لذلك اخذنا من اقواله ما ليس فيه مجال للخيال . ونبذنا البقية . فلم نلتهم من كتابه اللحم والظلم ، كما فعل حضرته لما اخذ عنه مقاله في فخر الدين ، الذي نشره في «مجلة المنارة» . حتى انه نقل اسم الامير طرايه ، صاحب غزه ، «طيرايت» . ولما التينا بحضرته ولقنا نظره الى خطاه ليصلحه في بقية المقال ، اجابنا «اسما. الاعلام يجب ان تنقل كما هي» . فقلنا : ولكن هذا الاسم شرقي . فاجابنا : «القاعدة مطردة» . فقلنا : اذا التينا مثلاً في كتاب انرسي باسماء موسى ويسوع ومحمد ، تحتم علينا اذن ، تبعاً لهذه «القاعدة المطردة» ، ان ننقلها الى قراء العربية : «مويز ، وجاسوس ، وماهرميت» ! . . .

٦ — وقال ايضاً : «نرى حضرة الاب قرألي يندى احياناً ما قاله . فيظهر لنا مثلاً ان فخر الدين مثال المدالة (وجد ٣٧) . ثم يقول لنا (وجه ٤٨)

انه كان يقطع انفاً كل من يتذمر منه ، او يطالبه بمدل .
 فنجيب : لو تروى حضرته في النص ، قبل ان يبدي هذه الملاحظة ، لعرف
 ان كلامنا لا يعني رعايا الامير بل الامراء جيرانه ، كيوسف باشا سيقا ، والامير
 طرايبه . فقد كان دأبها الشكوى عليه الى الباب العالي . اما عبارة « يقطع
 انفاً من يطالبه بمدل » فلم ترد في كتابنا بل دسها حضرته علينا . وهو ما
 لا يجوز شرعاً وذمة .

٧ — وتابع حضرته ملاحظاته بهذه : « ان المؤلف لا يقول لنا كلمة تجلو
 بعض التوامض ، مما تهتم القارئ معرفته . فقد تكلم مثلاً (وجه ٥٠) عن رماد
 عشبة تصلح لعمل الزجاج . وروى ما قاله الاب دنديني ، الذي ساح في بلادنا
 سنة ١٥٩٦ ، وذكر انه شاهد في طرابلس خمسين او ستين جملاً محملة رماد
 عشبة ، كان يرسل الى البندقية لعمل الزجاج . ولم يقل لنا ، ولو في حاشية
 صغيرة ، هل كان مدار الكلام حقيقة على رماد عشبة ، وما هي هذه العشبة .
 فنقول . اننا وجدنا الرماد المذكوراً في قائمة الصادرات اللبنانية ، فاهتمنا
 لامره الاهتمام كله . وجمنا من شتى الوثائق التي لدينا كل ما قيل بصدد تجارتها
 وصناعتها . وزدنا القارئ ايضاً بكلام الاب دنديني ، الذي افادنا انه رماد
 عشبة تمرق في حفر خاصة وتصدر الى البندقية والى سائر اوربة لعمل البلور
 النقي . ولم يقل لنا اكثر من ذلك . فهل يطلب منا ان نقول ما لا نعرفه .
 ونراه لامنا اولاً على كلمة قلناها في علاقات فخر الدين بنير دولة تسكانا ،
 واجبعنا على توسيع عنواننا سعة الكرة الارضية . وها هو الآن يطالبنا بالدخول
 في اجاث كيسوية وان نخلل له هذا الرماد لنقول له من اي عشبة يؤخذ . فهل
 هذا من واجبات المؤرخ .

ويطالبنا ايضاً بان نقول له من هو الحلاج كيوان ، ومن هو المطران جرجس
 ابن مارون ، وغيرهما من الاشخاص المذكورين في الوثائق .

فجبنا من ابدائه الملاحظات دون ترق وتحميص . فقد وقينا الكلام في
 الحلاج كيوان في عدة مواضع من الكتاب ، خاصة في حاشية طويلة الحقتها
 بالصفحة ٢١٤ ، حيث لخصنا كل ما يهم القارئ معرفته عنه . واحلنا الراضب

في الاستزادة الى المعني ، الذي خصص له ترجمة مفصلة . ولا يخفى ان الفريين لا يسهم ان يعرفوا عن المذكور اكثر من ذلك . بيد اننا في الجزء الثاني العربي من كتابنا افرزنا له اكثر من صفتين (١٢١-١٢٣) .

وهكذا قل عن المطران جرجس بن مارون سفير الامير . فقد نقلنا الى القراء كل ما عثرنا عليه بعده في المخطوطات والمطبوعات الجديدة التي قلبناها . وذكرنا كل ما عرفناه عن اسفاره وسفاراته واعماله حتى وفاته . ونشرنا له كثيراً من الرسائل تريد القراء معرفة بشخصه ومهته . فهل يتوجب على المؤرخ ان يأتي باكثر مما أتينا ، دون ان يخرج عن موضوع الكتاب .

ولم تترك بقية الاشخاص ، الوارد ذكرهم في الوثائق وفي المقدمة ، دون تعريف ، بقدر ما سمح المقام . حتى خفنا من لوم الفريين على اهمامنا بكل هولاء . ولو تكلف حضرته مراجعة جدول الاعلام ، الملحق في آخر الكتاب ، لوجد لكيوان ثمانية وثلاثين مرجعاً . وللمطران جرجس بن مارون الاهداني خمسة وثلاثين . والجدول مؤلف من اربعة وثلاثين عموداً بالخط الناعم ، حوى كل منها لا اقل من اربعين اسماً مع مراجعته . وقد اشرنا بالارقام السوداء الى الصفحات التي افرزنا فيها لكل من هولاء كلاماً خاصاً . فهل بعد ذلك من مستزيد .

٩ - وختم حضرته كلمته « المفصلة » بقوله : « ان قيمة الكتاب بما نشره المؤلف من الوثائق التاريخية » . وكان قد استهلها بقوله « للمؤلف فضل الجامع المجتهد ، الباعث بعض الوثائق من مدانها » . فكأنني به يعدّ درس هذه الوثائق والتعليق عليها لا قيمة لها . اي ان المقدمة ، التي عدّها العارفون فتحاً جديداً في تاريخنا ، لا قيمة لها . مع انها زبدة آلاف من الصفحات المخطوطة او المطبوعة . جمعنا منها شتات المعلومات عن كل مادة عالجتها في حالة لبنان المدنية والزراعية والتجارية والسياسية والحربية في عهد الامير ، وحللناها ونسناها حتى جاء الكلام في كل باب وافية بالعرض بقدر ما وجدناه . وبلغت المقدمة مئة وعشر صفحات . فضلاً عن التعليقات على الحوادث والاعلام الواردة في الوثائق . وهو ما يقتضي من عنا . التفتيش ودقة النظر وصحة المنطق ما لا يعرف قيته الا من مارسه . وهذا المذر الوحيد الذي نتحلّه لحضرته ، شاكرين له على

كل حال عنايته بتقديم كتابنا الى قرأء المشرق، وإن مشرفاً . ويعصب على طبعنا مديح عملنا . بيد ان من دلائل قيمة المقدمة ما اقدمت عليه مجلة « المدنية الكاثوليكية » *la Civiltà Catholica* ذات المقام الرفيع في عالم الادب بتلخيصها هذه المقدمة في عشر صفحات . مع انها تبخل على اكبر الكتاب باكثر من نصف صفحة . وتكتفي بالاشارة في نصف سطر الى بقية الهدايا الاذبية التي تقدم لها . ونحيل حضرته ايضاً على كتاب صاحب النيافة الكوردينال تيسران ، الذي نشرنا ترجمته في « البشير » . وهو كما يعلم من اشهر المؤرخين والتقدمه ومن اشد هم وطأة على المؤلفين . وقد كتب الينا ، كما صرح في صدره ، « بعد ان طالع كتابنا برمته » . ولما ذهبنا لشكره على هذا التلطف والعطف ، اجابنا : « انا لا املق احداً وقد املتُ بنفسي نص رسالتك اليك » . وليعلم حضرة الناقد ان المجمع العلمي الايطالي قد عين كمادته لجنة خاصة لفحص الكتاب قبل نشره . ولجنة اخرى قبل توزيعه على الجمهور . وانفق عليه عن سخاء زها . خمسين الف فرنك ايطالي . فهل يقبل كل هذا دليلاً ان قيمة الكتاب لا تنحصر في « جمع بعض الوثائق » بل في درسها . وألا كان للمامل صئيف احرف المطبعة فقتل الناشر .

زغربتا ، في ٢٧ كانون الاول ١٩٣٧

